ثانياً: أقوال العلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق:

للعلماء في ذلك أقوال كثيرة منها:

القول الأول: إن أول ما نزل من القرآن (صدر سورة العلق).

وهو قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق/ ١- ٥]

وهذا القول أصح الأقوال وأرجحها، ومن أدلته:

١- ما ثبت عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: " أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ..." الحديث[1].

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢- ما رواه الحاكم والبيهقي عن عائشة رضى الله عنها قالت : " أول سورة نزلت من القرآن : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ "[1].

٣- ما رواه الحاكم والطبراني عن أبي رجاء العطاردي قال : " كان أبو موسى الأشعري يقرئنا فيجلسنا حلقاً وعليه ثوبان أبيضان ، فإن تلا هذه السورة : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ قال : هذه أول سورة نزلت على محمد ﷺ "[2].

٤- ما رواه أبو عبيد في فضائل القرآن عن مجاهد قال : " إن أول ما نزل من القرآن : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ و ﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾ "[3].

وقد أورد بعض المؤلفين عدة أدلة عقلية على رجحان هذا القول على غيره، من هذه الأدلة :

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١- أن النبي ﷺ كان أمياً فكان من الأليق أن تكون أول سورة تنزل من القرآن تشير إلى القراءة والمعارف التي لم يكن يعرفها النبي ﷺ ولا قومه من قبل هذا .

٢- النبي ﷺ كان يعجب من حال قومه ، وعبادتهم لأحجار لا تسمع ولا تبصر ، وكان يقول : لابد لهذا الكون من خالق ، فجاء الجواب : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ .

٣- الحياة لا تقوم إلا على العلم والتعلم ، فكان من الطبيعي أن يبدأ القرآن بأساس الحياة ، وما تقوم عليه برسم المدرسة المثالية ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

القول الثاني : أول ما نزل سورة (المدثر) .

ودليل هذا القول الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه قال: "سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ، قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فَقُلْتُ: أَوِ اقْرَأْ، قَالَ جَابِرٌ: أُحَدِّثُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: (جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا ، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا هُوَ عَلَى

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ - يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام - فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ : دَثِّرُونِي فَدَثَّرُونِي فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر/ ١-٤](١).

وأجيب عن هذا الحديث :

١- أن المراد بالأولية فيه أولية مخصوصة وليست أولية مطلقة(٢) فيحتمل :

أ) أن المراد أول سورة نزلت بعد فترة الوحي ، ويشهد لهذا قول جابر في رواية أخرى : " سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ : (فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجَثِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَدَثَّرُونِي ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ إِلَى وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَاةُ وَهِيَ الْأَوْثَانُ)(٣).

ب) أن أول ما نزل للنبوة صدر سورة اقرأ ، وللرسالة سورة المدثر .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب ٧٤ ، سورة المدثر ، ٨/ ٥٤٥، ح ٤٩٢٢ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب : بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، ٢/ ٢٠٨.

(٢) انظر : فتح الباري للحافظ ابن حجر ٨/ ٥٤٦ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ح ٤٩٢٥ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، ٢/ ٢٠٧

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جـ) أن المدثر أول سورة كمل نزولها ، أي : أن باقيها نزل قبل نزول بقية سورة اقرأ وغيرها .

د) أن سورة المدثر أول سورة تنزل لسبب خاص ، حيث إن الرسول ﷺ ، قال : دثروني دثروني فنزلت ؛ أما سورة اقرأ فلغير سبب خاص بل نزلت ابتداء [1]، قال ابن حجر : " ولا يخفي بُعد هذا الاحتمال " [2].

٢- أن جابر رضى الله عنه استنبط هذا الرأي باجتهاده وفهمه ، وليس بنص ما رواه عن الرسول ﷺ ، فتقدم عليه رواية عائشة رضى الله عنها ، قال الكرماني : (استخرج جابر " أول ما نزل يا أيها المدثر " باجتهاد وليس هو من روايته ، والصحيح ما وقع في حديث عائشة) [3] .

ويشهد لهذا أن جابر رضى الله عنه أخبر عما سمع ، ولم يسمع كُلّ ما حَدَّثَ به رسول الله ﷺ قبل فترة الوحي الذي روته عائشة ، فاقتصر على ما سمع ظاناً أنه ليس هناك غيره ، اجتهاداً منه ، غير أنه أخطأ في اجتهاده بشهادة الأدلة السابقة في القول الأول ، ومعلوم أن النص يقدم على الاجتهاد ، وأن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال ، والاحتمال الذي

---

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن ١ / ٧٠ .

(٢) انظر : فتح الباري ٨ / ٥٤٦ .

(٣) المصدر السابق .

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

تطرق إلى هذا الدليل هو إرادة الأولية المخصوصة بعد فترة الوحي ، فيبطل بذلك القول الثاني ويثبت القول الأول .

٣- أن في حديث جابر رضى الله عنه ما يدل على أن الرسول ﷺ رأي جبريل قبل ذلك حيث جاء في حديث جابر رضى الله عنه " فإذا هو على العرش " وإشارته إليه بالضمير تدل على أنه سبق ذكره ، وفي رواية أصرح (فإذا الملك الذي جاءني بحراء ..) .

ولهذا فإن هذا الدليل غير كاف لإثبات أولية النزول لسورة المدثر ، بل وصف النووي القول بأن أول ما نزل سورة المدثر بأنه "ضعيف بل باطل، والصواب أن أول ما نزل على الإطلاق ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ كما صرح به في حديث عائشة " [1]، وعليه جمهور العلماء سلفاً وخلفاً .

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner